(طنين) السؤال المزمن في الثقافة العربية 2/1

تُعد الرواية فن رصد التحولات خلال مسيرة التاريخ، وهي الوريث الأول لفنون السير والملاحم وأدب الرحلات والرسائل ، وغيرها من الفنون الأدبية ذات السمات السردية ، وبقدر ما تُقدم الواقع فإنها تعيد إنتاجه - ليس بنسقه الفائت المنقضي ، أو كما هو كائن - وإنما وفق ما ينبغي أن يكون ، وبالتالي فإن الرواية تحفل بالتباس واضح بين ما هو مادتها، وبين ما هو متخيل عبر صفحاتها ، ولا يمكننا الفصل التام بين المادة والمتخيل في حال موت المؤلف حسب تعبير رولان بارت الشهير ، إذ إننا أمام واقع مكتف بذاته رغم تشابكه مع الوقائع المعروفة واختلافه عنها في الوقت نفسه ، هذا الواقع الذي يحتم علينا التعامل معه كبنية ذاتية المرجع ، مكتملة الدلالة ، غير مراهنة إلا على ما بداخلها ، والرواية كغيرها من الفنون ليست معنية بشرح ما تحتويه من إشارات ودوال ؛ بمعنى أنها تنفي صلتها بما تنقله ، وإن كانت هذه الإشارات الافتراضية ناشئة عن إحالات واقعية في العالم الفعلي ، ومن ثم فالقدرة الفاعلة على قراءتها ترتبط بمدى معرفتنا بالواقع ومفرداته ووقائعه دون فرضه على النص ، مما يجعل النص الأدبي الروائي منفتحاً على قدر لا نهائي من الدلالات والتأويلات .

هذه المقدمة تستدعيها محاولة تقدم قراءة لرواية " طنين "(لسيف الإسلام بن سعود)، المحملة بالعديد من الإشارات والرموز والإحالات الحضارية لمسيرة التاريخ العربي قديمه وحديثه ، فقد اختار الكاتب لعمله واحدة من لحظات التحول الكبرى ، ليس في التاريخ السعودي فحسب ، بل الإقليمي والعالمي أيضاً ، ومن ثم فقد وقع هذا التحول على الشخوص التاريخيين الذين رصد الكاتب حياتهم عبر تقنية روائية شهيرة " الرسائل أو ما يسمى بأدب المراسلات " ، فالعمل يقوم على افتراض أن الأمير(خالد بن سعود) - الذي شهد صبياً انهيار الدولة السعودية الأولى في الدرعية على يد قوات (طوسون وإبراهيم باشا) - كتب قبل وفاته في مكة لصديقه (حمد بن محيمل)سبع رسائل ، يشرح فيها موقفه من المرحلة التاريخية التي شهدها ، ويقدم فكرته الرئيسة عن الخطأ الأكبر الذي يرتكبه أكثر الحالمين ، وكيف أدى هذا الخطأ إلى تعثر مسيرة النهضة العربية مرات ومرات دون أن يتم تداركه .

ولعل شخصية (خالد بن سعود) واحدة من الشخصيات الملحمية الفذة ، فهو رغم قدراته المعرفية كان يحمل بداخله "خطأه التراجيدي" ؛ مما أدى إلى فشل مشروعه السياسي والحضاري ، فهو ابن لأحد مؤسسي الدولة السعودية الأولى (سعود الكبير) ، وقد شهد في صباه ازدهارها وقوتها ، ولكن الأمر لم يدم طويلا ، فبعد موت(محمد ابن عبد الوهاب) أصبح (سعود الكبير) يجمع بين السلطتين السياسية والدينية في وقت واحد ، وكان على إمام نجد ومن بعده ابنه (عبد الله)أن يواجها قوة طامحة ومنافسة لهما ،

وهي قوة (محمد علي باشا) الذي استنجد به الخليفة (السلطان محمود الثاني) ؛ ولأن الجحافل الغازية كانت ذات خبرة حربية متطورة وحديثة فقد انتهى الأمر بتدمير الدرعية وأسر آل عبد الوهاب وآل سعود ، وكان بطل " طنين " واحداً من هؤلاء الذين تم أسرهم وترحيلهم إلى مصر ، كما كان جزءاً من الصراع على بناء الدولة السعودية الثانية .

حتى ذلك الوقت كان " الخطأ التراجيدي" كامناً ، فخالد ضمن من تم أخذهم إلى مصر ليكونوا تحت عين والي مصر ، ومن بينهم ابن عمه (فيصل بن تركي) الذي استطاع الهرب فيما بعد ليجمع الأنصار والأعوان ، جاعلاً من نفسه إمام نجد الجديد ، وناقلاً بذلك الحكم من فرع سعود إلى فرع تركي ، والعاصمة من الدرعية إلى الرياض ، في حين بدأ "الفيروس" الذي أصيب به خالد منذ صغره ينشط في مصر ، فالفارق الحضاري متسع ، والنهضة التي أحدثها (محمد على)كبيرة ، والأمر يستدعي التأمل والتعلم ، فبدأ خالد يحلم ببناء دولة على أسس علمية لا دينية ، حيث إن الدين أحد أسس بناء الدولة لا كلها ، كما أنه متسع ومتعدد حسب الحضارات التي مازجها والعصور التي عاش فيها ، ولا يمكن التغاضي عن روح التصوف فيه ، كما لا يمكن حذف الفرق ، أو الطوائف ، أو المذاهب من قائمته ، فجميعها تنضوي تحت مسمى الإسلام وإن اختلفت وتباينت مشاربها ، كما أن الظرف العالمي الذي يشهد صعوداً متتالياً لأوروبا لن يسمح بمجيء دولة ذات منهج أحادي ، حتى إن العثمانيين أخذوا بإعادة النظر في منهجهم ليتوافقوا مع الحداثة الغربية ، ومن ثم لم يكن أمام خالد سوى قبول مبدأ الحوار والاختلاف ، وعدم اليقين الكامل بفكرة واحدة ، وكان النموذج الذي قدمه (محمد علي) هو النموذج المثالي للنهضة التي حلم بها لبلاده التي تعاني من الفقر والأمية والفوضى وانعدام الموارد الاقتصادية ، وظلت هذه الرؤية المثالية تتسع لدى الأمير الصغير الذي صُنع على عين والي مصر ، وكانت القراءة والمعرفة والتقرب من فكر الآخر المختلف دعائم أساسية في رؤيته ، حتى اختاره والي مصر ليكون الإمام في نجد ، فذهب على رأس حملة يقودها (إسماعيل باشا) فاستطاع أخذ الرياض وما حولها من ابن عمه فيصل ، بل استطاع بعد حروب طويلة أن يلقي القبض على فيصل - بفضل قوات خورشيد باشا – ويُنفى إلى في القاهرة من جديد ، وهنا يظهر" الخطأ التراجيدي " الذي لا يخص خالد وحده ، لكنه خطأ كل محاولات التحديث والتنوير التي صاحبت النهضة العربية ، فجميعها تجاوزت واقعها المحلي ، وتجاهلت إدارة الشعوب ، فأتت فوق صهوات الدبابات والمدافع ، وما أن زوال السلطة القادمة من الخارج تحدث الانتكاسة ، فما أن استقر الوضع لخالد في الرياض حتى وقعَّ (محمد علي) اتفاقية لندن 1840م ، والتي بمقتضاها سحب قواته من الجزيرة العربية ، فوقف خالد - بأفكاره التحديثية الرافضة لدمج السلطتين الدينية والسياسية في شخص واحد- أمام واقع لا يقبل مثل هذه الرؤية ، وبالتالي كانت النتيجة اتهامه بأنه جاء على مدافع المصريين ، وأنه

خائن لدماء من استشهدوا في الدرعية ، فخرج عليه أصدقاء الأمس ، ولم ينصره حلفاء كونتهم فوهات المدافع ، في حين عاد فيصل من منفاه ليتطابق مع رؤى وأفكار الواقع القائم ، فكانت النتيجة انتصاره ودخوله الرياض ، بينما يغادر خالد طائراً جريحاً يقضي بقية أيامه في مكة تحت رقابة عيون الباب العالي ، فيعاني من فقر وغربة ومرض ابنه الوحيد " مشاري " الذي يموت في صباح يوم العيد ، وما يلبث أن يموت والده بعده بأيام .

هذه قراءة سريعة من داخل النص الذي حفل بسرد تاريخي رأسي تم التركيز فيه على مفاصل مهمة من صراع تاريخي جرى في تلك الحقبة الزمنية ، فهناك التاريخ المصري الذي أنتج (محمد علي) عقب انسحاب الحملة الفرنسية ، وهناك تاريخ شبه الجزيرة الذي أنتج الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) الذي أثمرت فكرته حين التقى بأمير الدرعية ؛ فخرج الأخير حاملاً فكر الشيخ ورؤاه مُطارداً فلول الكفر في شبه الجزيرة حتى خضعت لحكمه ، وهناك الباب العالي الذي يمثل الحلقة الأضعف في سلسلة الحكام العثمانيين ، حين بدأ التنافس العالمي على هذه الدولة لالتهام أملاكها من قبل أوروبا الناهضة ، وفي الداخل هناك الجمعيات الوطنية السرية التي أخذت تطالب باستقلالها ، وكان (محمد علي) هو القاسم المشترك في تلك اللحظة التاريخية بين كل هذه الأقطاب المتصارعة ، فحين تصاعدت قوة آل سعود في الجزيرة وأصبحت خطراً على الخلافة أرسله الباب العالي إليها ليقضي على الحركة الوهابية ، فقضى على الدولة السعودية الأولى ، وحين فشل الباب العالي في القضاء على ثورة اليونان أُرسل (محمد علي) فأنجز المهمة فيما يعرف بحرب (المورة) ، لكن أوروبا التي وجدت جيشاً قوياً هبط على أرضها توجست منه خيفة فقررت القضاء عليه ، ولم يكن أمام (محمد علي) الذي خسر أسطوله كاملاً إلا المطالبة بسوريا تعويضاً من الباب العالي لخسارته ، فبدأ الصراع بين الوريث وصاحب الملك ، هذا الصراع الذي ينتهي بتحجيم الدولة الطامحة وعزلها عن الصراع العالمي ، وبالتالي ترك مشروعها القومي الكبير ينهار أمام الجميع ، وكان (خالد بن سعود) جزءاً من هذا المشروع الذي لو قُدر له النجاح لتغيرت الكثير من الأفكار التي مازال الواقع العربي يعاني منها ، والتي دعت (سيف الإسلام بن سعود) لتقديم استقرائه الروائي للتاريخ، ثم وصاياه للحكام في الرسالة السابعة من "طنين "، ونستكمل في قراءة تالية محاولة التأويل من خارج النص .

(طنين) السؤال المزمن في الثقافة العربية 2/2

قدمنا في مقاربة سابقة قراءة من داخل النص لرواية " طنين" (لسيف الإسلام ابن سعود) ، ونستكمل في هذه المقاربة قراءة النص من خارجه ، وهي قراءة تنهض على آلية التأويل والتفسير ، والرواية تبدو ملتبسة بدءاً من عنوانها " طنين " هذا العنوان المختصر البسيط الذي يمكن ربطه بشخصية بطل الرواية (خالد بن سعود) فهذا البطل في صغره وأثناء حصار (إبراهيم باشا) للدرعية أصابته شظية في وجهه ؛ جعلته يشعر على الدوام بطنين في أذنه التي فقد جزءاً منها ؛ ولذا فقد أطلق عليه العامة ومنافسوه (أبو طنة)، لكننا أمام كل هذا السرد الروائي - الذي تهيمن عليه إعادة قراءة التاريخ - لا يمكننا الركون إلى تفسير " أبي طنة " ، فالطنين من حيث اللغة هو: صوت النحل ، وهو أزيز دائم ممتد ، وهو خارج الأذن وليس داخلها ، ومن ثم فهو أقرب لمنطق من يسترق السمع عن قصد وليس مجرد السمع العفوي ؛ أي أن صاحبه ينصت لشيء يريد استبيانه وتحديد مصدره بوضوح ، فإذا ربطنا بين صفحات التاريخ الواسع وشخوصه العديدة ، وصراعاته المتتالية ، ومنطق ابن خلدون في فلسفة التاريخ ، وبين الصراع الذي كان (خالد ابن سعود) أحد شهوده وفاعليه ، وبين (سيف الإسلام) - بوصفه راوياً محايداً- يسعى إلى تقديم تفسيره الخاص لأزمة النهضة العربية منذ مبتداها في القرن الثامن عشر وحتى الآن ؛ ندرك أن "طنين" هو أكثر العناوين دلالة على أجواء نص حافل بصراعات تاريخية شهدتها الجزيرة العربية.

ولعل الإهداء لا يقل التباساً وغموضاً عن العنوان ، إذ إن الكاتب يهدي عمله الذي تجاوز أربعين وثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط إلى خالد ، ولا نعرف هل المعني هنا (خالد بن سعود) بطل الرواية ؟ الذي لن يستفيد شيئاً من الإهداء ولا من وصايا الكاتب ؛ لأنه أصبح جزءاً من تاريخ يمكن الاستفادة من وقائعه ولا يمكن تغييرها ، أم أنه خالد آخر ؟ قد يكون أحد أبناء المؤلف أو صديقاً له ، أم أن خالد هنا بمعناه اللغوي الدال على الأزلية والدوام ؟ ، لكن النص أيضاً يحاول التمويه فلا يكشف من يعنيه بخالد الإهداء حين يسوق عدة فقرات تبدأ " إلى كل من " ، وجميعها أفكار لا تبعد عن شخص بطله (خالد بن سعود) ولا تخصه وحده ؛ لأنها تفيد العموم ، فتظل أحلاماً إنسانية مهمة تراود الطامحين في كل زمان ومكان .

ولا تقف علاقة الالتباس عند الإهداء والعنوان ، بل النص ينفتح على تأويلات لا حصر لها ، فالتاريخ يتواتر وتتداخل أحداثه ، وينبث في مستويات النص كله ، بدءاً من شخصية البطل (خالد بن سعود) التي تتوازى مع (عبد الله الصغير) آخر أمراء بني أمية في رحيله من الأندلس إلى المغرب ، فقد شهد خالد سقوط الدرعية وضياع ملك أبيه ورحيله إلى القاهرة ، كما شهد ضياع ملكه هو في الرياض وهجرته مرغماً إلى

الكويت ثم مكة خوفاً من ملاحقة (فيصل بن تركي) ورجاله له ، حتى زوجته وأهلها تركوه يرحل بابنه الصغير الهزيل استعطافاً لقلوب خصومه لحظة الانتقام .

كما تمتد علاقات الالتباس إلى دور البطولة نفسه في العمل ، فالأماكن والشخصيات والأحداث تتنازع البطولة ، فالقاهرة بتاريخها وسحرها تتوازى مع الدرعية والأستانة ، كما أن الأحداث في القاهرة والقسطنطينية تفرض نفسها على أحداث الجزيرة سواء في الدرعية أو الرياض أو مكة ، ومن ثم كان لا بد أن يُقدِّم (سيف الإسلام) تلخيصاً تاريخياً باهراً لكل من هذه العواصم ونشأتها وأحداثها وملوكها ، ويداخل القارئ الريب أحياناً بأن المؤلف يكتب التاريخ الراهن لحياة بطل النص (خالد بن سعود) ، ولولا أن دفة السرد يهيمن عليها الأخير لتوهمنا أن البطولة لأحد اثنين : والي مصر (محمد علي ، أو ابنه إبراهيم) ، بل إن السارد يفاجئنا بمحبته الشديدة للقائد الألباني الذي حدَّث مصر وجعلها قوة مؤهلة لوراثة الإمبراطورية العجوز ، وهي علاقة ملتبسة بالطبع ؛ لأن (محمد علي) هو من أعطى الأوامر لجيوشه بالقضاء على الدولة السعودية ورجالها وأسر من بقي منهم ليقيموا في القاهرة إقامة جبرية ، لكنه أيضاً الأب الروحي الذي غرس المدنية الحديثة في العالم العربي ، وهو نمط الحضارة الذي حلم به (خالد بن سعود)، على نقيض علاقته بالسلاطين العثمانيين الذين أظهرهم في قمة الضعف والحماقة واللهو ، ولا نعرف أي الأحداث التي يمكننا القول إنها تحمل العقدة الدرامية في النص ، فجميعها أحداث مؤثرة ، فحين يطلب الخليفة العثماني من (محمد علي) القضاء على الدعوة الوهابية فهذا حدث مهم ومؤثر في بنية العمل ، ولكننا لا نرى أثره بشكل قريب ومباشر ، وحين تفرض الدول الغربية على (محمد علي) معاهدة لندن 1840م، فهذا حدث لا يخص خالد بن سعود ، لكن انسحاب القوات المصرية من الرياض هو الذي قضى على أحلامه في الدولة السعودية الثانية لإقامة نظام اقتصادي لدولة قوية حديثة ، وبالتالي فالسارد لم يكن أمامه سوى أن يفسح للحدث البعيد أهمية خاصة وتفاصيل شديدة التعقيد تتوازى مع أهمية الحدث القريب وتفاصيله ، وتظل هذه العلاقة متعددة في مستوياتها وتمنح نص " طنين" ، أبعاداً مشرعة لكافة التأويلات على مستوى البنية العميقة ، فنحن نفاجأ ببنية نصية قديمة في إطار حديث ، حيث اتخذ الكاتب فكرة الرسائل شكلاً لبنية عمله الروائي ، (فخالد بن سعود) المراقب في مكة يكتب رسائل لأهله وأصدقائه في مصر والجزيرة وغيرها ، لكن هذه الرسائل لا تصل ؛ لأن عيون الدولة العثمانية هي التي تتسلمها ، وتجمعها في حوزتها ، وحين يموت خالد وابنه مشاري لا يبقى أمام هذه العيون سوى إنهاء مهمتها بدفن جثمانه ثم تسليم كل متعلقاته إلى رئيسهم في مكة الذي يرسلها بدوره إلى العراق ومنها إلى الباب العالي في الأستانة ، لكن هذه العيون تتجاوز مهمتها حين تنتهك خصوصية الرسائل ، وهنا نقرأ معهم هذا النص المكون من سبع رسائل ، وجميعها مرسلة إلى صديقه القديم (حمد بن محيمل) الذي يقيم في عاصمة العربان الرياض في الدولة السعودية الثانية ، وبالتالي

فكل فصل "رسالة" تبدأ بالسلام واسم المرسل إليه وتنتهي بالسلام واسم المُرسل ، وكثيراً ما يجيء في نهايتها ملحوظة عن الحالة التي يعانيها المرسل من طنين أو فتق أو حديث عن الأحوال الصحية لابنه مشاري ، فالبنية من حيث الشكل هي بنية الرسائل بشكلها المعتاد ، لكنها من حيث المتن تتنوع إلى عدة آداب أخرى ، كأدب الرحلات حين يصف رحلته من الدرعية إلى القاهرة ، أو من القاهرة إلى الأستانة ، أو من القاهرة إلى الرياض ، ومن الرياض إلى الكويت ، ومن الأخيرة إلى مكة ، ويغلب على النص في هذه الرحلات وفرة المعلومات فيما يخص الأحوال الاجتماعية ، ودقة الوصف للأماكن التي تنقل خلالها .

لكن العمل في مضمونه الأكبر ينتمي إلى الأدب الملحمي حيث الحروب والمعارك والجيوش وقيام دول وانهيار أخرى ، وتحمل الرواية كغيرها من الأعمال الملحمية أخطاء تراجيدية لكل شخصياتها ، (فخالد بن سعود) رجل مثالي حالم يذهب إلى عاصمة ملكه على مدافع المصريين ، ومن ثم ينهار الحلم بمجرد رحيل المدافع ، و(محمد علي) يبني حضارته لخدمة الجيش ، ومن ثم تنهار الحضارة بتقليص الجيش وتوقف الفتوحات ، ومثلما كانت مثالية (خالد بن سعود) سبباً في فشل مشروعه فإن طموح (محمد علي) العسكري كان سبباً في نهاية ملكه ، ومثلما كان هذا الخطأ عاملاً من عوامل النصر، فقد كان أيضاً سبباً للهزيمة والنفي والموت ، أما آخر العناصر الملحمية في النص فهي وجود البطل والبطل الضد، (فخالد بن سعود) نقيضه (فيصل بن تركي) ، و(محمد علي) والعرب نقيضهما أوروبا والباب العالي .

ويبقى التساؤل الذي هدف إليه (سيف الإسلام) عبر هذا العمل الملحمي يثير مزيداً من الحيرة أمام سؤالنا الحضاري ، وهو السؤال الأزلي منذ صوبت الحملة الفرنسية مدافعها إلى مصر ، ويستفيق العرب جميعاً من غفلتهم وتأخرهم على حضارة مدنية حديثة ، حضارة لا يقوم فيها الدين بدور القائد ، وكلما أوجعتنا الأحداث ونحن نراقب الآخر يبتعد عنا مسافات ضوئية حضر السؤال الوجودي بلا إجابة ، وهو سؤال بلا ريب كان حاضراً في ذهن (سيف الإسلام) حين شرع في كتابة " طنين " ، وربما كان هو الشرارة التي أشعلت الفتيل ، فجاء كل هذا التواتر التاريخي الحضاري عبر ملحمة مليئة بأسئلـــة عميقة وحادة .